رفاعة رافع الطهطاوي
مفكراً تربوياً
١٢١٦هـ-١٢٩٠هـ / ١٨٠١م-١٨٧٣م

م. د. عبد الكريم محسن الزهيري
جامعة الأنبار / كلية التربية / قسم العلوم التربوية والنفسية

المقدمة

يعد القرن التاسع عشر من أهم الفترات التاريخية في حياة مصر، بسبب الأحداث السياسية المتوالية آنذاك، فالحملة الفرنسية على مصر عام (١٧٩٨-١٨٠١) التي مهدت لإضعاف سيطرة العثمانيين الذين كانوا يقفون وراء حالة التخلف بوجه عام. وقد أدت الحملة وظروفها إلى حالة اليقظة وتكاتف القوى الوطنية وانتشار الوعي القومي، الذي كان العامل الرئيسي لطرد الفرنسيين من مصر.

حيث كان مجيء محمد علي عام ١٨٠٥ بداية جديدة في تاريخ مصر الحديث، فقد قام بتحديث مصر من خلال بناء المدارس والعناية بالجيش إلى الاهتمام بالعلم والقوة، واهتم بإرسال البعثات وحركة الترجمة.

لقد وضع رفاعة أسس الانطلاقة العربية نحو النهضة والتقدم، وقدم لشعبهُ وامتهُ زاداً ثقافياً يغطي احتياجات هذه الأمة تقريباً في عملية التطور والتغيير الجارية لمختلف جوانب الحياة،حياة الأمة بطبقاتها وفئاتها(١).

إن الفكر الحديث لرفاعة لم يأت نتيجة مباشرة لعملية الإصلاح.وانما هي نتاج استيعاب عميق لتاريخ وطنه وامته وما تعيشهُ أوربا في ذلك الوقت، فقد رفض التخلي عن التراث الثقافي، أمام الحاضر الذي تمثله أوربا.

فهو يعد من أوائل الذين نادوا بعملية التحديث وكسر طوق العزلة والاستفادة من علوم ومعارف الغرب.

إن كل مفكر ما هو آلا نتاج العصر الذي عاش فيه، وترتبط حياته بالأحداث الكبرى التي جرت في عصره، وتتباين مكانته في التاريخ حسب الدور الذي يضطلع به، في توجيه الأحداث بما يخدم وطنه وامته(٢).

لقد استخدم التحديث طريقاً لبناء الدولة، ولكنه استخدم خطاً وسطاً للسير عليه في طريق الإصلاح بين القديم والحديث، لم يتعصب للقديم، ولم يأخذ عن الغرب كل شيء، بل رأى أن الطريق الوسط هو الحل الأمثل للإصلاح(٣).

إن عملية هدم النظام القديم ليس بالشيء الهين، لان الوعي القومي لم يكن بمستوى القوة والنضج يجعله قادراً على القضاء على أركان النظام القديم(٤).

وقد اتسم العلم بالجمود والاقتصار على العلوم النقلية والشرعية في الأزهر وبعض المساجد، في حين أن شيخ الأزهر حسن العطار قال: (إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها)(٥).

إن هذا القول أدركه محمد علي بقوله :(لا قوة لمصر ألا بقوة نظامها).

وبناء على ذلك فقد اهتم بالجيش والتعليم وبناء المدارس وإنشاء الدواوين والمجالس– وأكد على الوحدة مع الأقطار العربية، لان لا قوة لمصر دون وحدتها واهتم بالجوانب الزراعية حيث وزع الأراضي على الفلاحين

(١) محمد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت ط١٩٧٣/١،ج١، ص٦٨.
(٢) عبد الحميد حسن، عصر رفاعة الطهطاوي، بحث مستل من كتاب مهرجان رفاعة، دار النشر للجامعات المصرية القاهرة، ١٩٥٨، ص٣٩
(٣) جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة،١٩٥١، ص٦.
(٤) احمد عزت عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية،بيروت،١٩٧٠،ص٢٢٧
(٥) محمد عبد الغني حسن، حسن العطار، سلسلة نوابغ الفكر العربي،دار المعارف، مصر،١٩٦٨،ص٧٤

واستخدم الأدوات الحديثة في الزراعة. كما ادخل زراعة محاصيل جديدة والعناية بالمحاصيل القديمة، فأدى إلى زيادة الإنتاج كماً ونوعاً.

كما اهتم بالجوانب الصناعية التي كانت مرتبطة بالجوانب الزراعية كصناعة النسيج واللوازم العسكرية.

كما توجه إلى الجوانب التجارية، حيث إنشاء الأسطول التجاري، مستخدماً نظام الاحتكار الكامل لبعض المحاصيل الزراعية، والاحتكار الجزئي لبعضها الآخر، وفرض الاحتكار على المنتجات الصناعية على أساس إعطاء الصناع المواد الأولية بثمن محدد ثم شراء المنتجات الصناعية منهم بثمن منخفض(١).

ولذلك أدرك أن لا قوة للدولة بدون العلم الذي تمثل حلقاته الأساسية التعليم والبعثات والترجمة والصحافة والطباعة، وما لها من تأثير كبير على بلورة الفكر في ذلك العصر. ولذلك فقد اهتم بأمور أهمها :-

التعليم :

الذي أنشأ نظامه الجديد على أنقاض التعليم القديم، حيث كان التعليم القديم يتسم بالركود والتخلف ولا يخرج عن أروقة الأزهر وبعض الكتاتيب، ولذلك اهتم محمد علي بإنشاء أول مدرسة حربية لتعليم أبناء المماليك واعتمد على الأساتذة الأجانب، وكانت لغة التدريس الإيطالية، تم انشأ مدارس متوسطة وعليا وأنشأ مدرسة الألسن لتعليم اللغات، وهذا يعود إلى رفاعة الطهطاوي، حيث اصبح هيكل التعليم يرتكز على ثلاثة أقسام.

التعليم العالي (الخصوص)، والتعليم التجهيزي (الثانوي)، ولتعليم الابتدائي (٢).

البعثات :

لقد أدرك إن حركة الإصلاح لا يمكن أن تنجح وتستمر إلا بأهل البلد ولذلك قام الوالي بإرسال البعثات من شباب مصر، وقد اطلع هؤلاء على الحياة الأوربية على حقيقتها وما وصلت إليه من تقدم وتطور، ولذلك تحمسوا إلى نقل تلك الحضارة إلى بلادهم فأرسلت مجموعة إلى أيطاليا لدراسة الفنون العسكرية وبناء السفن، ثم تلتها مجموعة إلى فرنسا لدراسة أمور أخرى كثيرة (٣).

الترجمة :

لم يكتفِ أبناء مصر بالكتب والمصادر الثقافية السائدة، بل أرادوا التنويع ولذلك اتجهوا إلى الترجمة والتعريب، وكان الهدف هو نقل العلوم والمعارف الأوربية المختلفة إلى مصر، ونشر الثقافة العامة بين الشعب، وأدت مدرسة الألسن دوراً كبيراً في ذلك (٤)

الطباعة والصحافة :

إن انتشار الحركة الفكرية وتطورها، يعتمد على وجود الصحف والمطابع لكي تلبي حاجة الأفراد وتساهم في نشر وتطور المفاهيم والمعارف الحديثة حيث أنشئت أول مطبعة في عام ١٨٢٠م وتلاها إنشاء مطابع أخرى، حيث قامت بطباعة الكتب واحياء المخطوطات القديمة (٥).

كما صدرت أول جريدة عام ١٨٢٨م بأسم (جور نال الخديوي) وكانت تصدر باللغة التركية والعربية، ثم استمرت بالعربية فقط (٦).وكان رئيس تحريرها رفاعة الطهطاوي، الذي اهتم بالتراث والحضارة الغربية، لكن الدول الغربية لم يحل لها هذه النهضة ففرضت معاهدة لندن عام ١٨٤٨م على مصر وهي معاهدة ساهمة في ضرب مصر ونهضتها، لان مصر لا يوجد فيها طبقات قادرة على حماية المكاسب الاقتصادية، كما أن

(١) احمد احمد آلمته / تاريخ مصر الاقتصادي، مطبعة المصري،١٩٦٧،ص٢٦٣-٢٦٤.

(٢) عبد الرحمن زكي، الجيش الذي قاده ابراهيم، بحث مشغل من كتاب ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا – دار المعارف، مصر، ١٩٥٠،ص١٦٧

(٣) ذوقان قرقوط، تطور الفكرة العربية في مصر، المؤسسة العربية، بيروت، ١٩٧٢، ص١٣٧-١٣٨

(٤) محمد يوسف نجم – العوامل الفعالة في تكوين الفكر العربي الحديث ن بحث مستل من كتاب الفكر العربي في فئة سنة، بيروت – الدار الشرقية،١٩٦٧،ص٥٤

(٥) جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، مصدر سابق ص٢٠١

(٦) محمد صالح وسميح أبو مغلي، تاريخ الصحافة العربية، نشأتها وتطورها، دار الكتاب العربي، الأردن – ١٩٦٦،ص١٠٨

النظام اخفق من تطوير الملكية الخاصة، ولم يفلح العمال والفلاحين في تنضيج حركة عمالية أو فلاحية مما حكم على التجربة بالفشل والانهيار (١).

ولادتهُ ونشأته

ولد رفاعة رافع الطهطاوي في إحدى مدن صعيد مصر وهي مدينة (طهطا) في السابع من جمادى الثاني ١٢١٦ هـ الموافق ١٥/تشرين أول /١٨٠١م (٢) من أسرة عربية ترجع في نسبها إلى الإمام الحسين (عليه السلام).

فهو السيد رفاعة بك بن السيد بدوي بن السيد علي بن السيد محمد بن السيد علي بن السيد رافع بن السيد حريز بن السيد محمد شمس الدين بن السيد عبد الرحمن بن أبي القاسم بن احمد.وقد كان يكنى رفاعة أبو العزم الذي لقبه به شيخ الأزهر السادات(٣).

وقد نال تعليماً دينياً أساسيا جيداً على يد أخوال له، كان معظمهم من علماء الأزهر، منهم الشيخ عبد العزيز الأنصاري والشيخ فراج الأنصاري اللذان حفظا عنهما جميع المتون المتداولة في المعقول والمنقول وبعض كتب النحو(٤).

وعاصر في طفولته الأولى أحداث نهاية الاحتلال الفرنسي لمصر ١٧٩٨م التي ساعدت على إزالة الجمود الذي خلفه العثمانيون – ولذلك فقد تأثر بتلك الإحداث وخصوصاً بما يدور في الوسط المثقف الذي مثله أبناء أسرته من تعليقات وأراء حول هذه الأحداث، ولذلك يبرز الدور الكبير الذي لعبه المؤثرون الخاص بالبيئة العائلية والمجتمع.

احتل الأزهر مكانة كبيرة في الحياة الفكرية والدينية في مصر والوطن العربي على مر العصور. وبذلك أصبح مركزاً مهماً في حياة مصر، علاوة على نفوذه السياسي والإجماعي، حيث كان يمثل مركز الثقافة والمعرفة الهادفة لتنوير العقول وصولاً إلى أعلى المراتب والدرجات الوظيفية(٥).

كان الأزهر ملتقى عربياً وإسلاميًا تشكلت في رحابه أروقه خاصة بالبلدان العربية، وكثيراً ما تبوأت شخصيات عربية مركز شياخته، فكان ذلك تعزيزاً لصفته القومية (٦).

وباختلاف دوره الفكري بسبب الظروف التي سادت مصر والوطن العربي، إذ أصاب الحياة الفكرية تدهور في العهد العثماني واختفى من علومه الكثير، وسادت مكانها العلوم التقليدية (٧) لكنه بقي محتفظاً بزعامته العلمية والفكرية، وقد لعب دوراً بارزاً وكبيراً في قيادة الحركة الشعبية ضد الغزاة والاحتلال الأجنبي، حيث تولى رجاله قيادة المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين، ومنهم السيد عمر مكرم وعبد الله الشرقاوي (٨) ويتجلى دور الأزهر بعد خروج الفرنسيين وخلع الوالي العثماني وتنصيب محمد علي والياً على مصر.

إن مناهج الأزهر على الرغم من جمودها فأنها كانت تؤدي دوراً مهماً في تنوير الأذهان، وهذا أدى إلى بروز بعض القيادات الأزهرية التي أدركت حاجة المجتمع إلى التطوير والتجديد، لكي يواكب النهضة والتطور الحاصل في أوربا أمثال، الشيخ حسن العطار ١٧٦٦-١٨٣٥ م(٩) الذي أمتاز بعقلية تقدمية تتطلع إلى التحديث التحديث وتؤمن بالتطور، وكان عالماً محباً للعلم، جعل من الحركة أداته لإزالة الجمود الذي خيم على المجتمع العربي وعلى الأزهر، بعد اتصاله برجالات الحملة الفرنسية ليعلمهم اللغة العربية وقد اطلع على كتبهم وما تحتويه من بساطة في التعبير عن الأفكار، ومناهجهم المتحررة. ولذلك نادى بضرورة إدخال العلوم الفلسفية والأدب والطب والعلوم الانسانية كالتاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية، وعدم الاكتفاء بالملخصات والمتون

(١) نادية رمسيس، النظرية الغربية والتنمية العربية، مجلة المستقبل العربي العدد/ ٦٤ /بيروت –١٩٨٤، ص٤٤
(٢) علي مبارك – الخطط التوفيقية – المطبعة الأميرية ببولاق، ط١ /جـ١٣، ١٣٠٥ هـ،ص٥٣.
(٣) صالح مجدي، حليمة الزمن بمناقب خادم الوطن، سيرة رفاعة رافع، تحقيق جمال الدين الشيال، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٥٨ ص١٧.
(٤) محمد فهمي حجازي، أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب،٩٧٤، ص٦.
(٥) سنية قراعة، تاريخ الأزهر في ألف عام، مكتب الصحافة الدولي، القاهرة،١٩٦٨ ص٢٣٢
(٦) ذوقان قرقوط، تطور الفكرة العربية في مصر ١٨٠٥-١٩٣٦، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٢ ص٣٦
(٧) تشارلز ادمس، الإسلام والتجديد في مصر قدم له مصطفى عبد الرازق، نقله عباس محمود مطبعة الاعتماد، مصر،١٩٥٣ ص٢٨
(٨) محمد عمارة، العروبة في العصر الحديث – دار الكتاب العربي – القاهرة،١٩٦٧،ص١٢٥
(٩) سعيد إسماعيل علي – الفكر التربوي العربي الحديث، الكويت،١٩٨٧، ص٧٣

المتداولة. ولكن واجه معارضة شديدة في إدخال الموضوعات العلمية ؛ لكن استفاد من تلاميذه النابهين في تحقيق هدفه وكان من أبرزهم رفاعة الطهطاوي (١) حيث احتضنه أستاذه وأرسله في بعثة إلى فرنسا عام ١٨٢٦ م.

حيث تأثر كثيراً بأسلوب أستاذه وقد اخذ يحاور أستاذه ويناقشه في موضوعات المناهج والكتب الأجنبية التي لم تصل إلى الأزهر والى أساتذته.

وقد برزت أولى محاولات رفاعة في التأليف عندما نظم أرجوزة في التوحيد حازت على إعجاب الشيخ الفضالي شيخ الأزهر، وقد كتب خاتمة لأحد كتب النحو (٢) وكان يعمل في التدريس علاوة على دراسته في الأزهر، وكان زملاؤه يعودون إليه في شرح بعض الغموض في دروسهم وكان أسياده يثقون به كثيراً(٣).

تم تعيينه مدرساً في الأزهر، وعين إماما في فرقة من فرق الجيش حتى حصوله على بعثة إلى فرنسا عام ١٨٢٦ م (٤)

إن دراسته في الأزهر تعد الأساس الفكري لبناء شخصيته التي كانت تعيش حالة مخاض فكري، أنذرت بخلق قيادات فكرية جديدة خرجت عن الأطر التقليدية للأزهر (٥).

إن إدراك محمد علي لأسباب قوة أوربا جعلته يتجه إلى التحديث بوصفه أساسا جوهرياً لبناء الدولة القوية، ولنجاح عملية التحديث كان لابد له من سلطة مركزية بعد استيعابه للمحيط الداخلي لمصر، وكذلك استيعابه للمحيط الخارجي المتمثل بالدولة العثمانية وأوضاعها المتدهورة، وأوربا التي تمثل الاستعمار والنهضة العلمية والثقافية (٦).

فقد قام بإرسال البعثات إلى أوربا لكي تنتقل العلوم والمعارف المتطورة إلى مصر لتساهم في عملية البناء والنهضة. حيث حرص رفاعة على فهم كل مقومات النهضة الغربية واستيعابها والى تعلم اللغة والأدب الفرنسي ودراسة العلوم والمعارف المختلفة (٧)، باحثاً عن الوسيلة التي تمكنه من نقل هذه العلوم والمعارف إلى بلدة، فوجد الترجمة خير وسيلة لتحقيق ذلك (٨).

فأختص بها وتفوق على زملائه في ذلك فدرس مؤلفات لرجال الثورة الفرنسية وتعرف على الكثير من علماء فرنسا.

إن كلام (جومار) أحد المفكرين الفرنسيين للبعثة الطلابية المصرية قائلاً :

(أنكم منتدبون لتجديد وطنكم الذي سوف يكون سبباً في تمدين الشرق بأسره، فأمامكم مناهل العرفان فاغترفوا منها بكلتا يديكم)(٩).

عكف رفاعة وزملاءه على دراسة العلوم المختلفة من اجل تحقيق نهضة بلاده واستقلالها وعدم تبعيتها إلى الغرب بعد عودته من البعثة إلى مصر من باريس عام ١٨٣١م حمل معه كتابه (تخليص الإبريز) الذي أمر الوالي محمد علي ترجمته وتوزيعه على الدواوين والأعيان وتلاوتها في المدارس والاستفادة منها.ثم حظي بمقابلة الوالي الذي وجد فيه الثقة العالية والنجاح.

تقلد المناصب الوظيفية واصبح مترجماً بمدرسة الطب التي بقي فيها سنتين، ثم اسند إليه الإشراف على المدرسة التجهيزية للطب، بعدها انتقل إلى مدرسة الطوبجية بطرة عام ١٨٣٣ م وقد أصبح ناظرها فعمل في ترجمة الكتب.

---

(١) جمال الدين الشيال، رفاعة الطهطاوي زعيم النهضة الفكرية في عصر محمد علي، دار إحياء الكتب العربية – ١٩٤٥ – ص٦،٧

(٢) صالح مجدي، حلية الزمن، بمناقب خادم الوطن، تحقيق جمال الدين الشيال، مطبعة مصطفى البابي وأولاده، مصر،١٩٥٨ ص٢٥

(٣) نفس المصدر السابق /ص٢٩

(٤) البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩٣٩ ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر – بيروت،ط٣،٩٧٧ ص٩٢

(٥) جلال احمد أمين، المشرق العربي والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت،ط٣ن١٩٨١،ص١٧

(٦) جمال الدين الشيال، محاضرات عن الحركات الإصلاحية، جامعة الدول العربية، مطبعة نهضة مصر،١٩٥٧ ص٦٥

(٧) عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،ط٣،١٩٥١،ص٥٠٤

(٨) غالي شكري، النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث ن دار الطليعة، بيروت،ط٢ ن١٩٨٢،ص١٥١

(٩) عمر طوسمون البعثات العلمية في عهد محمد علي، مطبعة صلاح الدين، الإسكندرية،١٩٣٤،ص٣٣-٣٤

ثم تقدم إلى الوالي بطلب إنشاء مدرسة الألسن التي خرجت أول دفعاتها ١٨٣٩م بعد أن أخذت دورها الكبير في خدمة البلد وتحقيق تقدمه الذي كان محور أفكار رفاعة وغايته التي هي حب إيصال النفع إلى الوطن (١).

كان لا يقف على وقت محدد في المدرسة يمكث ثلاث أو أربع ساعات على قدميه يدرس اللغة أو الفنون والشرائع الإسلامية والقوانين الأجنبية (٢).

ثم أنشأ قلم الترجمة الذي الحق بمدرسة الألسن، ثم رقي إلى وظيفة قائمقام تكريماً له ولجهوده العالية.

فقد عُدَّ أول منشئ لجامعة عربية مدنية، وأنه أول عربي أنشأ متحفاً لآثار مصر التي خطط لجمعها وصيانتها (٣).

لكن هذه المؤسسة العلمية لم تستمر بعد تولي عباس السلطة ١٨٤٨م الذي أغلقها وسعى لتصفية تلاميذها ونفى لرفاعة إلى السودان عام ١٨٤٩م (٤).

رفاعة الطهطاوي في السودان

إن عهد الوالي عباس أمتاز بالجمود والرجعية، والذي دفعه إلى إغلاق معظم المدارس والإرساليات ونفي رفاعة إلى السودان والذي تذرع بأن يقوم رفاعة بتأسيس مدرسة في السودان يكون رفاعة مديراً لها وبمساعدة أحد أعلام النهضة التعليمية هو محمد أفندي بيومي (٥).

وقد رأى كثير من المؤرخين أن أسباب النفي متعددة ولكن السبب الأول هو الإبعاد والنفي، لكن آخرين يعتقدون أن كتابة (تخليص الإبريز) لما يحتويه من مبادئ لا تتلاءم مع رغبات الحاكم المستبد، في حين يرى آخرون أن من أسباب إبعاد رفاعة عودة علي مبارك من أوربا الذي كان حاقداً على رفاعة وقربه من الوالي عباس، أو معارضة بعض المشايخ المتعصبين لرفاعة وعدوه متطفلاً علي ميدانهم في تدريس الشريعة والفقه(٦).

ويرى آخرون أن من أسباب النفي ما يدور في ذهن الوالي من سوء الظن بالنابهين والذي قادة إلى ضرب المركز الفكري الرئيس في البلاد (المدارس)(٧). ولكن الاحتمال الوارد للنفي ما قاله رفاعة أن إرساله كان لنظارة مدرسة الخرطوم(٨).

كما يؤكد المؤرخ الدكتور محمد عمارة أن النفي للطهطاوي كان بمثابة انقلاب رجعي ورده كاملة ضد البناء الحضاري والثقافي، ويتصارع فيها تياران يهدفان إلى استقلال مصر وتطوير البلاد وتحقيق النهضة الشاملة وإبراز العنصر الوطني فيها ليكون بديلاً للأجنبي ويأخذ على عاتقه عملية البناء في حين إن التيار الثاني الذي استند إلى الملاكين العقاريين الكبار الذين كونوا إقطاعيات كبيرة ودعمهم المستعمرين الإنكليز وقد نجح هذا التيار لكون الوالي يدعمه أيضا (٩)وبذلك ذبلت مؤسسات الفكر.مهما كانت الأسباب التي أدت إلى نفي الطهطاوي، فأن رفاعة لم يستسلم لأحزان النفي، فقد بذل كل جهده في السودان لأنه عدها بلده الثاني فقد أنشأ المدرسة ورتبها أحسن ترتيب، وقد ترجم كتاب (تليماك) (١٠).

وعلى الرغم من كل العقبات والمشاكل التي واجهته في السودان، فقد أدى واجبه تجاه شعب السودان وقال : ومع أن مدة الإقامة بتلك الجهات كانت لمجرد الحرمان من النفع الوطني، فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن سفري لم يضع هباءً منثوراً. فقد تعلم فقهاء الخرطوم ممن معي من المشايخ القراء تجويد القرآن الشريف وعلم

(١) حسين فوزي النجار، رفاعة الطهطاوي / الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة –ب-ت
(٢) علي مبارك، الخطط التوفيقية، مصدر سابق، ج١٣، ص٥٤
(٣) أنور لوقا، رفاعة بين القاهرة وباريس / بحث مستل من مهرجان رفاعة،ص١٣٩
(٤) فتحي رفاعة، من حياة رفاعة، بحث مستل،ص١٩١
(٥) جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، مصدر سابق،ص١٤٤
(٦) احمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في عصر محمد علي، النهضة المصرية، القاهرة،١٩٣٨،ص٥٨
(٧) حسين فوزي النجار، رفاعة الطهطاوي، مصدر سابق ص١١٠
(٨) محمد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي،ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،١٩٧٣،ج١،ص٤٥٣
(٩) محمد عمارة، الأعمال الكاملة / نفس المصدر السابق ص٨٥-٨٦
(١) علي مبارك – الخطط التوفيقية / مصدر سابق ص٥٥

القران وحتى صاروا ماهرين في ذلك، وفي آخر الأمر انتظمت أمور المدرسة نحواً من تسعة شهور، وتجلى شعوره القومي تجاهها حين قال : صارت هي وديار مصر في العمار (أي الحضارة) كالتوأمين وفي إيناع الثمار صنوين.

في عام ١٨٥٤م تولى الخديوي سعيد الذي امتاز بميوله الغربية وتفكيره الحر واهتمامه بالحياة الثقافية وإعادته المؤسسات الفكرية والتربوية التي كانت قائمة في عهد محمد علي (١) واصدر أوامره بإعادة المنفيين المنفيين ومنهم رفاعة الذي اسند إليه وكيل نظارة مدرسة حربية بالصلبية ثم انشأ مدرسة حربية وقلم للترجمة في القلقة(٢) ثم أصبحت هذه المدرسة مدرسة أركان الحرب، وتولى بعدها نظارتي مدرستي الهندسة الملكية والعمارة وتفتيش مصلحة الأبنية (٣).

ثم توجه إلى إحياء التراث وطبع الكتب العربية كتفسير الفخر للرازي ومعاهد التنصيص وخزانة الأدب ومقامات الحريري وعلى نفقة الحكومة. ولذلك يعد الطهطاوي أول من وضع أعمدة النهضة الشاملة التي تمثلت بالترجمة والنشر والتأليف، ثم تولى منصب رئيس مجلة روضة المدارس حتى وفاته في عام ١٨٧٣ م.

الفكر التربوي لرفاعة الطهطاوي

لقد أحس رفاعة بوجود فجوة كبيرة بين الدول الإسلامية وأوربا، لان التيار المسيطر على عصر رفاعة هو التيار الديني الإسلامي، إن أي شيء يمس الحياة والمجتمع يوصف بكونه بدعة وضلالة، وعليه أراد أن يزيل هذه الفجوة ويجد قاعدة مشتركة بين الحضارتين، وان اطلاعه المباشر على نهضة أوربا دفعه للاهتمام بالعلوم البحتة والتي وجد فيها النهضة والتقدم وانه بحاجة إلى كسب المعرفة حتى من البلاد الأوربية، ودعوة الإسلام إلى العلم والمعرفة مستشهداً بقول الرسول محمد (ﷺ) (الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو في أهل الشرك)(٤).

فقد بدأ يخالط الأغراب من الأوربيين، ودعوته إلى الانفتاح على الأمم مستعيناً بتراث الأمة العربية الإسلامية، وعد الحضارة والمعرفة والعلوم ليست وقفاً على شعب دون آخر، بل جاءت نتيجة تكامل الحضارات.

وان العلم لا يقتصر على أمور الدين فقط، بل يشمل العلوم النظرية والعملية، كما أكد على الحرية إذا كانت مبنية على قوانين حسنة عدلية، ويرى أن للحرية أشكالا متعددة فهي حرية طبيعية وحرية سلوكية، وحرية دينية، وحرية مدنية، وحرية سياسية (٥)، حيث أكد بأن هذه الحريات موجودة عند المسلمين منذ القدم وهذا ما ما جاء بقول الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لعمرو بن العاص : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا (٦) لقد اهتم رفاعة الطهطاوي بأمور الفكر التربوي وتحديثه ومن المحاور المهمة التي أهتم بها كثيراً.

اللغة العربية :

بما أن اللغة العربية هي الوعاء الحافظ، كان عليها أن تفتح نفسها للشعوب الأخرى فقد كانت منغلقة ولا تعد وسيلة تعامل حية أو أداة ثقافية راقية، لكن عن طريق الترجمة وتوضيح المصطلحات العلمية القديمة التي وصفها العلماء العرب القدماء أيام النهضة السابقة الأولى.

فقد عدت اللغة العربية افصح اللغات وأعظمها وأوسعها على السمع.

وأكد على تراث الأمة في العصور القديمة أو الإسلامية، حيث كان حكماء اليونان يأتون إلى مصر لتلقي العلوم والفنون [٧] فهو لم يجعل من مصر قطعة من أوربا، بل أن يجد الأسس العامة للتمدن، مستفيداً من خبرة البلد، ولذلك وجد أن للتمدن جانبين هما : الجانب المادي والجانب المعنوي.

---

(٢) لو تسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث م دار التقدم، موسكو، ١٩٧١، ص١٨٧

(٣) صالح مجدي، حلية الزمن بمناقب خادم الوطن، مصدر سابق ص٣٩

(٤) جمال الدين الشيال، رفاعة الطهطاوي، مصدر سابق ص٤٥

(٥) محمد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة /مصدر سابق /ص١٦

(٦) محمد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة، مصدر سابق ص٤٧٣

(٧) محمد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة، مصدر سابق ص٢٧٢-٢٧٩

(١) ملطبرون، التعريبات الشافية لمريد الجغرافية، تقريب رفاعة الطهطاوي، المطبعة الخديوية ن بولاق – ١٢٥٠هـ - القسم الأول، ص٢٣٦.

فالتمدن المادي يشكل الأساس الاقتصادي الذي جعله يهتم بالجوانب الزراعية والتجارية والصناعية والمواصلات وحتى الجوانب السياسية والاجتماعية، منطلقاً من الدين الإسلامي الذي يشجع على الكسب المادي الحلال [١] ولذلك بدأ يدعو ويحث أبناء الوطن على حب العمل والإخلاص فيه. كقول الرسول محمد (ﷺ) : (إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه) [٢].

وأدرك أن الجانب الاجتماعي له أهمية كبيرة في تغيير بعض القيم والمفاهيم المتخلفة السائدة منطلقاً من الدين الإسلامي بتحريم البدع والضلالات، ثم أكد على تحرير المرأة وهي تعد من أول الدعوات في العصر الحديث مستنداً إلى مبادئ الإسلام في التعليم ومعاملتها بالحسنى حيث قال : ((كلما كثر احترام النساء عند قوم، كثر أدبهم وظرافتهم، فعدم توفية النساء حقوقهن فيما ينبغي لهن الحرية فيه. دليل على الطبيعة المتبربرة))[٣] في حين أكد على الزواج المتجانس، وتربية الأبناء تربية صالحة، وانخراط المرأة في ميادين العمل.

الوحدة الوطنية :

لقد أكد في كتاباته الكثيرة على الوحدة الوطنية وحبه للوطن والتضحية من اجله فقد وضع الحديث الشريف أمامه (حب الوطن من الإيمان)، واعد الوطن عش الإنسان. ولذلك نقل ما يناسب حضارة وطنه، بل وضع مفاهيم متقدمة ارتكزت على شعوره بتفوق أمته وقيمها، فقد كان ناقداً في بعض الأحيان، ومحللاً في أحيان أخرى لكثير من المفاهيم والقيم الفرنسية، فقد انتقد تعصب الفرنسيين في حالات التمييز العنصري وخصوصاً في مشاريع الزواج، حيث لا زواج من الزنجيات للأبيض (٤) ولذلك أكد على أساس إحياء التراث العربي الإسلامي مع الاستفادة من الجوانب المادية للحضارة الغربية.

التربية الإسلامية :

بما أن رفاعة نشأ في بيئة دينية وحفظ القران الكريم وتخرج من الأزهر فقد اتخذ من مبادئ الإسلام المستوحاة من القران الكريم الشيء الكثير في عملية التحديث فقد أكد على الأخلاق والفضائل والسلوك السوي، واعد الدين الإسلامي أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها (٥).

واعد الهدوء والاتزان من الأخلاق الفاضلة التي تحدد سلوك الأفراد، وان الدين الإسلامي يبعد الأفراد عن السقوط في شهواتها ويكون قاهراً للسرائر، ولذلك أكد على التعلم ودراسة الأمور الشرعية مستعيناً بأقوال الرسول محمد (ﷺ) : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) وأيضا (خيار أمتي علماؤها وخير علمائها فقهاؤها) وأيضا (من تفقه في دين الله كفاه الله تعالى مؤونته ورزقه من حيث لا يحتسب)٦.

وأكد على الاجتهاد بحيث لا يتعارض مع مبادئ الدين الإسلامي.

التربية والتعليم :

أراد رفاعة تحقيق الازدهار والتقدم لبلاده، فقد أكد على الشريعة الإسلامية في طرح أفكاره، فقد أكد على البناء الأسري المتوازن وتربية الأبناء وإرشادهم من قبل أولياء الأمور ومعاملتهم بالعدل والمساواة.

والتربية عنده تربية فردية، واجتماعية وعملية ([٧]).

واعد التعليم للجميع ومثله كحاجة الإنسان للماء والخبز، وأكد على عدم احتكار مهنة الآباء من قبل الأبناء وامتهان حرفهم، وأكد على أن كل فرد له حق مواصلة التعليم بلا حدود أو عوائق، وان لكل إنسان قابلية في التعليم.

---

(١) محمد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة، مصدر سابق ص٣٢٤

(٢) رفاعة طهطاوي، نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، مطبعة المدارس الملكية ن مصر،ط١،١٢٩١ هـ، ص٤١٢.

(٣) محمد عمارة، رفاعة الطهطاوي، رائد التنوير في العصر الحديث، دار المستقبل العربي، القاهرة ــط، ١٩٨٤، ص٣٣٥

(٤) محمد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة، مصدر سابق ص٧٩-٨٠

(٥) محمد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة، مصدر سابق ص٢٥٠

(٦) رفاعة طهطاوي، نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، مصدر سابق، ص٣٩٣

(٧) محمد مصدر سابق، ح٢ ص٧٤٧

(٢) محمد مصدر سابق، ح٢ ص٥١٨

التربية السياسية :

يرى ضرورة تعلم مبادئ السياسة لكل أبناء الشعب، حيث إن للتثقيف السياسي أثرا كبيراً في تكوين الوعي بالمواطنة وتهذيب الأخلاق وفهم الأفراد لمصالحهم الخصوصية والعامة التي تخص الوطن والحكومة، وقد هاجم كل من قال إن السياسة هي من أسرار الحكومة لا ينبغي علمها إلا الرؤساء والحكام (١)، حيث قسم السياسة إلى أنواع :

- السياسة النبوية وهي التي يخص بها الله من يشاء من عباده.
- السياسة الملوكية وهي حفظ الشريعة واحياء السنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- السياسة العامة وهي التي تخص الرئاسة على الجماعات كالأمراء والقادة
- السياسة الخاصة وهي التي تخص المنزل وتدبير أمور المنزل.
- السياسة الذاتية وهي التي تخص ذات الإنسان ويحاسب نفسه بنفسه (٢).

المصادر

١ احمد الحقة، تاريخ مصر الاقتصادي، مطبعة المصري، القاهرة، ١٩٦٧

٢ احمد عزت عبد الكريم، دراسات في تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت – ١٩٧٠

٣ احمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم في عصر محمد علي – النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٣٨

٤ أنور لوقا، رفاعة بين القاهرة وباريس، بحث مستل من مهرجان رفاعة، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ١٩٥٨

٥ البيرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة من ١٧٩٨–١٩٣٩، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت ط٣، ١٩٧٧

٦ تشازلر آدمس، الإسلام والتحديد في مصر، قدم له مصطفى عبد الرازق نقله عباس محمود، مطبعة الاعتماد، مصر،١٩٣٥.

٧ جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥١

٨ جلال احمد أمين، المشرق العربي والغرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٣، ١٩٨١

٩ حسين فوزي النجار، رفاعة الطهطاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ب–ت

١٠ ذوقان قرقوط، تطور الفكر العربية في مصر، المؤسسة العربي، بيروت،١٩٧٢

١١ رفاعة طهطاوي، نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، مطبعة المدارس الملكية، مصر،ط١٢٩١،١هـ

١٢ سعيد إسماعيل علي، الفكر التربوي العربي الحديث، الكويت، ١٩٨٧

١٣ سنية قراعة، تاريخ الأزهر في ألف عام، مكتب الصحافة الدولي، القاهرة، ١٩٦٨

١٤ صالح مجدي، حليمة الزمن بمناقب خادم الوطن، سيرة رفاعة – تحقيق جمال الدين الشيال،

(٣) محمد مصدر سابق، ح٢ ص٥١١-٥١٢

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ١٩٥٨
١٥ عبد الحميد حسن، عصر رفاعة الطهطاوي، بحث مستل من كتاب مهرجان رفاعة، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ١٩٥٨
١٦ عبد الرحمن زكي، الجيش الذي قاده ابراهيم، بحث مستل من كتاب ذكرى البطل الفاتح ابراهيم باشا، دار المعارف،مصر، ١٩٥٠
١٧ عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،ط٣، ١٩٥١
١٨ علي مبارك، الخطط التوفيقية، المطبعة الأميرية ببولاق،ط١،ج١٣٠٥،١٣هـ
١٩ عمر طوسمون، البعثات العلمية في عهد محمد علي، مطبعة صلاح الدين، الإسكندرية،١٩٣٤
٢٠ غالي شكري، النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث، دار الطليعة، بيروت،ط١٩٨٢،٢
٢١ فتحي رفاعة، من حياة رفاعة، بحث مستل من كتاب مهرجان رفاعة، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ١٩٥٨
٢٢ لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، دار التقدم، موسكو،١٩٧١
٢٣ محمد عمارة، الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،ط١،ج١٩٧٣،١
٢٤ محمد عبد الغني حسن، حسن العطار، سلسلة نوابغ الفكر العربي، دار المعارف، مصر ١٩٦٨
٢٥ محمد يوسف نجم، العوامل الفعالة في تكوين الفكر العربي الحديث، بحث مستل من كتاب الفكر العربي في مئة سنة، بيروت، الدار الشرقية، ١٩٦٧
٢٦ محمد صالح وسميع أبو مغلي، تاريخ الصحافة العربية ن نشأتها وتطورها، دار الكتاب العربي، الأردن –١٩٦٦
٢٧ محمد فهمي حجازي، أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤
٢٨ ملطبرون، التعريفات الشافية لمريد الجغرافية، تعريف رفاعة الطهطاوي، المطبعة الخديوية،بولاق،١٢٥٠هـ
٢٩ نادية رمسيس، النظرية الغربية والتنمية العربية، مجلة المستقبل العربي، العدد/٦٤، بيروت،١٩٨٤.